مجلة الإحياء، المجلد: 23، العدد: 33، أكتوبر 2023، ص - ص: 137 – 148
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

التعامل مع المعارضة السياسية في الفقه السياسي الإسلامي
علي بن أبي طالب مع الخوارج نموذجا
Dealing with political opposition in Islamic political jurisprudence
Ali ibn Abi Talib with the Kharijites as a model

طالب دكتوراه زكرياء بخوش [1] أ.د/ عمار جيدل
Zakaria Bekhouche Ammar Djiedel
كلية العلوم الإسلامية – جامعة الجزائر 1
مخبر المناهج العلمية في العلوم الإسلامية
z.bekhouch@univ-alger.dz a.djidel@univ-alger.dz

تاريخ الإرسال: 2023/01/11 تاريخ القبول: 2023/08/14

الملخص:

تعتبر وحدة الدولة وسلامة المجتمع الإسلامي وشرعية النظام السياسي، من أهم المبادئ التي أرساها نظام الخلافة في الدولة الإسلامية منذ عهد الخليفة الأول، ومع التطورات الحاصلة في هذا المجتمع على مختلف الأصعدة، ظهر الخوارج كفرقة عقدية تمسّ هذه المبادئ والأسس في الصميم، لذا اتبع الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه أسلوبا ومنهجا في تعامله مع هذه الفرقة.

وعليه جاءت هذه الورقة البحثية لتجيب عن إشكالية كيفية تعامل علي بن أبي طالب مع هذه الفرقة، وذلك من خلال محاور ثلاث تمثلت كما يلي:

المحور الأول: وتناولت فيه لمحة ونبذة تاريخية عن فرقة الخوارج.

المحور الثاني: بيّنت فيه كيفية تعامل الإمام علي بن أبي طالب مع هذه الفرقة قبل حملها للسلاح في شكل مجموعة من الخطوات المنهجية بدءا بالاعتراف بهم على ضلال أصولهم وانحراف أفكارهم الخارجة عن جماعة المسلمين، وعلى هذا أقرّ بحقوقهم العامة في المجتمع المسلم.

المحور الثالث: تطرّقت فيه إلى تحول فرقة الخوارج من فرقة ذات أصول وعقائد مختلفة عن الأمة الإسلامية إلى فرقة تقتل برّ وفاجر هذه الأمة، فتحوّل أسلوب علي بن أبي طالب في التعامل معهم بدءا بإبدائه نيّة الاقتصاص من قتلى الصحابة غير أنّ عنادهم وإصرارهم على قتل المسلمين حال دون ذلك، فأعطاهم الإمام أمانا آخر تجنبا لكل فتنة بين المسلمين، ورغم نشوب القتال إلى أنه عاملهم بالحسنى.

الكلمات المفتاحية: الخوارج؛ الحوار؛ القتال؛ حمل السلاح.

Abstract

The unity of the state, the integrity of the Islamic Society and the legitimacy of the political system are among the most important principles established by the caliphate system in the Islamic State since the reign of the first caliph.with the developments taking place in this society at various levels, the Kharijites emerged as a doctrinal group that touches these principles and

[1]- المؤلف المرسل

foundations at the core. Therefore, the fourth Caliph Ali ibn Abi Talib, may Allah be pleased with him, followed a method and methodology in his dealings with this group.
Therefore, this research paper came to answer the problem of how Ali bin Abi Talib dealt with this band through three axes, which were as follows:
The first axis: and we stopped by for a historical glimpse of the kharijite squad.
The second axis: we explained how Imam Ali ibn Abi Talib dealt with this group before taking up arms in the form of a set of next methodological steps, starting with recognizing them for the error of their origins and the deviation of their ideas outside the Muslim community, and thus recognized their general rights in Muslim society.
The third axis: we touched on the transformation of the kharijite squad from a squad with origins and beliefs different from the Islamic nation to a squad that kills the righteousness and immorality of this nation, so Ali ibn Abi Talib's style of dealing with them changed, starting with his intention to avenge the dead of the companions, but their stubbornness and insistence on killing Muslims prevented this, so the imam gave them another security to avoid every fitnah among Muslims, and despite this and the outbreak of fighting, he treated them well.
Key words: Kharijites; dialogue; fighting; taking up arms.

مقدّمة:

يعتبر منطق الوحدة والائتلاف من أهم المرتكزات الأساسية التي دعت إليها نصوص الكتاب والسنة النبوية، إلا أنّ هذا لم يمنع من ظهور وبروز عوامل الاختلاف والانشقاق في الأمة الإسلامية، ويؤكد هذا قوله ﷺ: "افْتَرَقَتْ اليَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَة، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً" قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: "مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي، وفي بعض الروايات: هِيَ الجَمَاعَةُ"[1].

إنّ المتتبع لبدايات التاريخ السياسي الإسلامي يدرك تماما أنّ فرقة الخوارج هي أول فرقة انشقت على جماعة المسلمين وتحديدا في زمن علي بن أبي طالب، لما كانت الأمة منشغلة في الحرب القائمة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.

حيث أشار الرسول ﷺ في حديثه على أن أقرب الفرقتين المتقاتلتين للحق، هي من ستتولى قتال الخوارج، قال ﷺ: "تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرقَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ يَقْتُلُهَا أُولَى الطَّائفتينِ إِلَى الحَقِّ"[2].

إنّ اقتتال الأمة في بداياتها على المسألة السياسية يؤكد على ضرورة الوحدة من جهة، واحتواء المخالف والمعارض من جهة أخرى، فالأمة شهدت اقتتالا بالغا إلى يوم النّاس هذا بخصوصها، وهذا ما أشار إليه الإمام الشهرستاني بقوله: "وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ماسلّ على الإمامة في كل زمان"[3].

وتأتي هذه الورقة البحثية كمحاولة من الباحث للوقوف على الآليات والخطوات التي اعتمدها علي بن أبي طالب للتصدي للفكر الخارجي المعارض والمناهض لجماعة ووحدة المسلمين.

أهمية الموضوع:

- تعدّ ظاهرة الانحراف الفكري والغلو الديني المشبع بالقراءات الإيديولوجية من أهم القضايا المطروحة في العالم المعاصر عموما وفي العالم الإسلامي خصوصا.

- يعتبر مصطلح الخوارج من أكثر المصطلحات التي شغلت الساحة الفكرية والسياسية والعلمية في الدول المعاصرة.
- طرق هذا الموضوع من شأنه أن يرفع اللّبس بين الفرق الإسلامية العقدية على مرّ التاريخ الإسلامي، والفرق السياسية قديما وحديثا.

أهداف الدراسة:

- إبراز الدور الفعال الذي لعبه علي بن أبي طالب في المحافظة على وحدة الأمة من خلال منهجه في التعامل مع الخوارج.
- بيان توفر الأمة على تجارب متكاملة في معالجة ظاهرة الانحراف الفكري والسياسي والانشقاق على جماعة المسلمين.
- إمكانية استلهام هذه التجربة وتوظيفها في حل الإشكاليات السياسية والفكرية المتواجدة على الساحة السياسية المعاصرة.
- بيان خطورة التوظيف السياسي لمصطلح الخوارج وانعكاساته السلبية.

الإشكالية:

ماهي الخطوات المنهجية التي اتبعها علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مواجهة فكر الخوارج؟

التساؤلات الفرعية:

1/ ماهي إرهاصات ظهور فرقة الخوارج؟

2/ كيف تعامل علي بن أبي طالب مع الخوارج قبل حملهم للسلاح؟

3/ كيف تعامل علي بن أبي طالب مع الخوارج بعد حملهم للسلاح؟

الدراسات السابقة:

هناك مجموعة من الدراسات التي تناولت مسألة الخوارج بصفة عامة، منها:

1- كتاب الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، مناهجهم وأصولهم، وسماتهم قديما وحديثا وموقف السلف منهم، تأليف ناصر بن عبد الكريم العقل، الصادر عن دار إشبيليا للنشر والتوزيع، وقد صدرت الطبعة الأولى للكتاب سنة 1998م.

حيث تطرقت الدراسة في تناولها لهذا الموضوع في ثلاثة مباحث تناولت في المبحث الأول الخوارج الأوّلون، وتطرقت في المبحث الثاني إلى الإباضية، وفي المبحث الثالث إلى الخوارج ونزعاتهم في العصر الحديث. وقد أفادتني هذه الدراسة في المبحث الأول من حيث التأريخ لهذه الفرقة ولألقابهم وأصولهم ومقولاتهم.

2- كتاب الخوارج والحقيقة الغائية تأليف ناصر بن سليمان بن سعيد السابعي، صدرت الطبعة الأولى من الكتاب سنة 1999م، حيث قسّمه الباحث إلى بابين اثنين، تناول في الباب الأول قضية ظهور الخوارج وبيّن آراءهم وفرقهم، أمّا في الباب الثاني فقد تطرّق إلى تحليل مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في باب الخوارج. وقد أفادتني هذه من حيث التأريخ لهم ولمواقفهم تجاه المجتمع والدولة الإسلامية.

03- كتاب نظرية الخروج في الفقه السياسي الإسلامي من تأليف كامل علي إبراهيم ربّاع، حيث صدر الكتاب عن دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى منه صدرت سنة 2004، وقد تناول المؤلف الموضوع في بابين اثنين.

الباب الأول: تناول موضوع السلطة في الإسلام وشرعيتها.

الباب الثاني: فقد تناول نظرية الخروج على الإمام الفاسق وموقف الفرق الإسلامية من الخروج عليهن. وقد أفادتني هذه النقطة من هذا الباب في هذه المقالة العلمية.

المنهج المتبع:

ولأجل معالجة الإشكالية المنبثقة من هذا الموضوع بمختلف تساؤلاتها الفرعية عمدنا إلى المنهج الاستقرائي كمنهج أساسي للوقوف على الإشكالية المطروحة في الورقة البحثية، كما عمدنا إلى توظيف مناهج أخرى مساعدة كالمنهج التاريخي والتحليلي.

الخطة:

ولأجل الإجابة على الإشكالية الرئيسية وما انبثق منها من تساؤلات فرعية في الورقة البحثية فقد قسّمنا هذه الورقة إلى ثلاثة محاور أساسية:

المحور الأول: الخوارج.

المحور الثاني: معاملة علي بن أبي طالب للخوارج قبل حمل السلاح.

المحور الثالث: معاملة علي بن أبي طالب للخوارج بعد حمل السلاح.

وخاتمة ضمّنتها أهم النقاط التي توصّلت إليها مع بعض المقترحات.

تقوم الحياة السياسية الإسلامية داخل الدولة الإسلامية على مجموعة من المبادئ والأسس التي تضبط وتحكم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، لإدارة الشأن العام وتصريف المصالح المشتركة بين أفراد المجتمع، لبناء مجتمع مسلم متكامل على متخلف الأصعدة وأهمّها "الشورى، الحرية والعدل".

غير أنّ هذا النّظام المنشود من الوحدة والتّكامل، لا ينفي وجود الاختلاف داخل المجتمع المسلم، سواء أكان فقهيا أو عقديا أو سياسيا.

ما يحتّم وجود طرف آخر متمثلا في أفراد أو جماعات يناضلون بطريقة سلمية أو مسلّحة قصد الوصول للسلطة، لإزاحة القائمين عليها.

وقد سجّل لنا التّاريخ السياسي الإسلامي نماذج مختلفة من هذه المعارضة السياسية، في ظلّ خلافة علي بن أبي طالب، ويعتبر الخوارج جزءا من هذه المعارضة السياسية، ويمكن تعريف **المعارضة السياسية** على أنّها: "إبداء الرأي السياسي المخالف بالقول أو الفعل المشروع للدولة، والمستند إلى دليل بعد تثبّت، والقابل للحوار"[4].

أولا: ارهاصات ظهور فرقة الخوارج

تعود بوادر ظهور فرقة الخوارج إلى زمن النبي ﷺ وهذا لما طعن عبد الله ذو الخويصرة التميمي في قسمة رسول الله ﷺ، في الحديث الذي قال فيه عبد الله بن محمد حدثنا هشام أخبرنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد قال: بينما النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: "ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ " قال عمر بن الخطاب: دعني اضرب عنقه، قال: "دعه فإنّ له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في قُذَذِهِ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر نَضِيِّهِ فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، أَيَتُهُمْ رجل إحدى يديه أو قال ثدييه مثل ثدي المرأة، أو قال مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فرقة من النّاس"[5].

وفي هذا الحديث إشارة بروز هذه الفرقة على حين فرقة تحدث بين المسلمين، وقد كانت بوادر انبعاثهم من جديد على الساحة السياسية الإسلامية لما قتل ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ثانيا: تعريف الخوارج

لغة: جمع خارج والخروج نقيض الدخول، ويقال وجد لأمر ما مخرجا، أي مخلصا، ويطلق الخروج على يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الخَرُوجِ﴾ (ق: 42).

وقد أطلق علماء اللغة كلمة "الخوارج" في تعريفاتهم اللغوية في مادة "خرج" على هذه الطائفة من الناس، وهناك معان أخرى كثيرة لمادة "خرج" ذكرتها كتب اللغة، ويلاحظ منها التناسب الكبير بين معنى الخروج في اللغة وما عليه منهج الخوارج، إذ أنهم خارجون على أئمة المسلمين وجماعتهم، وعلى عقيدة الإسلام[6].

اصطلاحا: عرف الشهرستاني الخوارج بقوله: "الخوارج كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان"[7]، وأضاف ابن حزم: "ويلحق بهم من شايعهم على أفكارهم أو شاركهم في آرائهم في أي زمان"[8].

فعند الشهرستاني يُعد الخارج عن الإمام الحق الذي اتفقت كلمة المسلمين عليه خارجيا، وبمفهوم المخالفة لا يعد خارجيا كل من خرج على إمام متغلب أو منقلب أو مغتصب للإمامة، وتعريفه هذا ينسحب حتى زماننا هذا.

ومن المعاصرين الذين عرّفوا الخوارج الدكتور ناصر العقل بقوله: "الخوارج هم الذين يكفرون بالمعاصي، ويخرجون على أئمة المسلمين وجماعتهم"[9].

ثالثا: مسمياتهم

وقد انشق عن الفرقة الأم - الخوارج- فرق عدة أوصلها البغدادي إلى حوالي عشرين فرقة، وهي: "المحكمة الأولى والأزارقة، والنجدات والصفرية، ثم العجاردة المفترقة فرقا منها: الحازمية والشعبية والمعلومية والمجهولية، وأصحاب طاعة لا يراد الله تعالى بها، والصلتية والأخنسية والشبيبية والشيبائية والمعبدية والرشدية، والمكرمية والحمزية والشمراخية والإبراهمية والواقفية والإباضية"[10].

والمتتبع لأصول أو فروع فرقهم يدرك تماما أنّ أسماء فرقهم مأخوذة من أسماء زعمائهم الأوائل أو كبار المنشقين عن الفرقة الأم.

وعلى اختلافهم في الفروع، جمعهم القول بالاتفاق في الأصول، وجماع أصولهم مردها إلى الخروج على الحاكم المسلم الجائر أو الفاسق أو العاصي الذي اجتمعت واتحدت كلمة الأمة عليه، وكذا التكفير بالكبيرة.

رابعا: أصولهم

في إشارتنا إلى افتراق الخوارج إلى حوالي عشرين فرقة، وهو اختيار الإمام البغدادي، فإنّ أمر الاختلاف يقتصر على مسائل فروع العقيدة، أمّا عن الأصول فإنّ الإجماع يكاد يكون منعقدا على أبجديات الفرقة الأم حيث ذكر الكعبي في مقالاته أنّ الذي يجمع الخوارج على افتراق مذاهبها، " تكفير علي وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل، وكل من رضي بتحكيم الحكمين، والتكفير بارتكاب الذنوب، ووجوب الخروج على الإمام الجائر"[11].

وخلاصة أصولهم التي تجمع فرق الخوارج هي:

1. تكفير مجموعة من الصحابة وهم: علي وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين، ومن رضي بالتحكيم وصوّب الحكمين أو أحدهما.
2. الخروج على ولي أمر المسلمين.
3. تكفير مرتكبي الكبائر.

المحور الثاني: معاملة علي بن أبي طالب للخوارج قبل حمل السلاح

تطرقت في المحور الأول للتعريف بفرقة الخوارج كإحدى الفرق التي ظهرت على الساحة السياسية الإسلامية بأصولها ومعتقداتها التي انعكست سلبا على أمن واستقرار وحدة الأمة الإسلامية آنذاك، وتهمنا في هذه المحطة كيفية تعاطي وتعامل علي بن أبي طالب معهم في حالة مسالمتهم وعدم إرهاب المجتمع وإحداث الفوضى والإخلال بالنظام العام في المجتمع المسلم، وذلك من خلال العناصر التالية:

أولا: الإقرار والاعتراف بهم

اتفق الدارسون لعلم الفرق الإسلامية أنّ فرقة الخوارج انبثقت من المجتمع المسلم، برزوا بشكل لافت في الفتنة التي وقعت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، والذين قدّر عددهم ما بين ثمانية آلاف إلى ستة عشر ألف خارجي ضمن جيش علي بن أبي طالب.

هذا وقد شكّلوا على علي رضي الله عنه وسيلة ضغط وحاولوا دفعه لقتال معاوية رضي الله عنه وسيوفهم على عواتقهم، فقالوا: "يا أمير المؤمنين، ما ينتظر هؤلاء القوم الذين على التّل ألا نمشي إليهم بسيوفنا، حتى يحكم الله بيننا وبينهم"[12].

حيث تلخّص لنا مما سبق اعتراف علي بن أبي طالب بالخوارج من خلال محطات ثلاث:

1- وجودهم ضمن جيشه.

2- مشاركتهم لعلي بن أبي طالب في القرارات التي اتخذها في حربه مع معاوية رضي الله عنهما.

ثانيا: الحق في إبداء الرأي

لم يكتف الخوارج بمخالفة جمهور المسلمين وأميرهم آنذاك في مسائل الاعتقاد، بل كانوا يجهرون بآرائهم ويحاجّون علي بن أبي طالب رضي الله عنه عليها، ويقدّمون له الأدلة من الكتاب والسّنة، داخل المسجد وخارجه، ولم يمنعهم من الجهر بقولهم بل كان يحاججهم ويحاورهم.

ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه "أنّ عليا بينما هو يخطب، إذ قام إليه رجل من الخوارج، فقال: يا علي أشركت في دين الله الرجال، ولا حكم إلا لله، فتنادوا من كل جانب لا حكم إلا لله...لا حكم إلّا لله، فجعل علي يقول: هذه كلمة حق يراد بها باطل"[13].

وفي هذا دلالة على أنّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فسح المجال في وجه الخوارج للتعبير عن معتقداتهم والبوح بها في وجهه وحتى داخل بيوت الله، وهذا ما يعكس لنا من جهة قابلية تنوع الفكر واختلاف الرأي دون الحجر عليه في المنظومة الإسلامية، ومن جهة كيفية احتواء علي بن أبي طالب رضي الله عنه للمخالف.

ثالثا: الحق في الحوار

لما انعزل الخوارج عن جيش علي رضي الله عنه إلى حروراء وتشكّلت فرقتهم وبرزت عقائدهم واستشرى خطرهم على الأمة الإسلامية، لجأ خليفة المسلمين إلى اتخاذ الحوار كوسيلة لجدالهم وردّهم إلى جماعة المسلمين وذلك من خلال:

1- محاورته كولي أمر للمسلمين لهم

المقرر في كتب فقهاء السياسة الشرعية أنّ من شروط تولي أمر المسلمين أن يكون الولي عالما مجتهدا حاذقا ذكيا، وهذا لاقتضاء سياسة أمر الناس ذلك، وهذا ما تجلى في شخص علي بن أبي طالب رضي الله عنه، من كفاءة علمية وسياسية حذقة مكّنته وبكل اقتدار من تولي أمر محاورة الخوارج بنفسه.

وقد أشار الطبري في تاريخه "أنّ عليا خرج بنفسه إلى بقيتهم فلم يزل يناظرهم حتى رجعوا معه إلى الكوفة، وذلك يوم عيد الفطر أو الأضحى - شكّ الراوي في ذلك- ثُم جعلوا بعد ذلك يعرّضون له في الكلام، ويسمعونه شتما ويتأوّلون تأويلا في قوله"[14].

ثُم خطب علي رضي الله عنه يوما آخر فقام رجل فقال: لا حكم إلّا لله ثمّ تولى عدّة رجال يحكّمون فقال علي: "الله أكبر كلمة حق أريد بها باطل، أما إنّ لكم عندنا ثلاثا ما صحبتمونا، لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا، وإنّ فيكم أمر الله، ثم رجع إلى مكانه من الخطبة"[15].

فامتاز حوار علي رضي الله عنه مع الخوارج بالحكمة البالغة والكلمة الطيّبة التي تجمع النّاس ولا تنفرهم عن جماعة المسلمين، وهذا رغم معرفته اليقينية بحالهم ومآلهم من منطوق قوله ﷺ: "تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق"[16].

فعلى علمه بضلالهم وزيغهم إلّا أنّه عاملهم واعتبرهم إخوانا له، فقد قال الهيثم بن عدي: حدّثنا إسماعيل بن أبي خالد عن حكيم بن جابر قال: سئل علي عن أهل النهروان: أمشركون هم؟ فقال: من الشرك فروا، قيل: أمنافقون هم؟ قال: إنّ المنافقين لا يذكرون الله إلّا قليلا، فقيل: فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: إخواننا بغوا علينا، فقاتلناهم ببغيهم علينا"[17].

2- محاورة أصحاب علي رضي الله عنه للخوارج

بالإضافة إلى محاورة علي رضي الله عنه للخوارج فقد تولى المهمة ذاتها جمع من أصحابه وأقرانه من صحابة رسول الله ﷺ، أشهرهم على الإطلاق:

عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه: حيث كان أول من ناظر الخوارج بعدما كلّفه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قبل أن يخرج إليهم بنفسه وهذا نص المناظرة: "لما خرجت الحرورية اعتزلوا في دار، وكانوا ستة آلاف فقلت لعلي: يا أمير المؤمنين أبرد بالصلاة، لعلي أكلم هؤلاء القوم. قال: إني أخافهم عليك قلت: كلا، فلبست وترجلت، ودخلت عليهم في دار نصف النهار، وهم يأكلون فقالوا: مرحبا بك يا ابن عباس، فما جاء بك؟ قلت لهم: أتيتكم من عند أصحاب النبي ﷺ المهاجرين والأنصار، ومن عند ابن عم النبي ﷺ وصهره، وعليهم نزل القرآن، فهم أعلم بتأويله منكم، وليس فيكم منهم أحد، لأبلغكم ما يقولون، وأبلغهم ما تقولون، فانتحى لي نفر منهم قلت: هاتوا ما نقمتم على أصحاب رسول الله ﷺ وابن عمه قالوا: ثلاث قلت: ما هن؟ قال: أما إحداهن، فإنّه حكم الرجال في أمر الله وقال الله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ﴾ [الأنعام: 57] ما شأن الرجال والحكم؟ قلت: هذه واحدة. قالوا: وأما الثانية، فإنّه قاتل ولم يسب ولم يغنم، إن كانوا كفارًا لقد حل سباهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حل سباهم ولا قتالهم، قلت: هذه ثنتان، فما الثالثة؟ وذكر كلمة معناها قالوا: محى نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين، فهو أمير الكافرين. قلت: هل عندكم شيء غير هذا؟ قالوا: حسبنا هذا. قلت: لهم أرأيتكم إن قرأت عليكم من كتاب الله جل ثناؤه، وسنة نبيه ما يرد قولكم أترجعون؟ قالوا: نعم قلت: أما قولكم: حكم الرجال في أمر الله، فإنّي أقرأ عليكم في كتاب الله أن قد صير الله حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم، فأمر الله تبارك وتعالى أن يحكموا فيه أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ

الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: 95] وكان من حكم الله أنه صيره إلى الرجال يحكمون فيه، ولو شاء لحكم فيه، فجاز من حكم الرجال، أنشدكم بالله أحكم الرجال في صلاح ذات البين، وحقن دمائهم أفضل أو في أرنب؟ قالوا: بلى، هذا أفضل وفي المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 35] فنشدتكم بالله حكم الرجال في صلاح ذات بينهم، وحقن دمائهم أفضل من حكمهم في بضع امرأة؟ خرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم: قاتل ولم يَسْبِ، ولم يغنم. أفتسبون أمكم عائشة، تستحلون منها ما تستحلون من غيرها وهي أمكم؟ فإن قلتم: إنا نستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمنا فقد كفرتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6] فأنتم بين ضلالتين، فأتوا منها بمخرج، أفخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، وأما محي نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما ترضون. إنّ نبي الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين فقال لعلي: اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك فقال رسول الله ﷺ: امح يا علي اللهم إنك تعلم أنّي رسول الله، امح يا علي، واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، والله لرسول الله ﷺ خير من علي، وقد محى نفسه، ولم يكن محوه نفسه ذلك محاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، فرجع منهم ألفان، وخرج سائرهم، فقُتِلوا على ضلالتهم، فقتلهم المهاجرون والأنصار"[18].

تبيّن لنا من خلال مناظرة ابن عباس ﷺ للخوارج، مدى سطحية طرح الخوارج واجتزائهم للأدلة وبترها عن سياقها، ما أدى إلى تحريفهم للمعاني عن مدلولها، إضافة إلى رؤية ابن عباس التي هي رؤية علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، المستمدة من النظرة الشرعية الرامية إلى توحيد كلمة المسلمين وجمع شتاتهم، ونبذ الفرقة والخلاف، منتهجا في ذلك أسلوب الحوار والحجة العلمية العقلية، الأمر الذي أفضى إلى رجوع الكثير من الخوارج إلى جادة الصواب.

قيس بن سعد بن عبادة ﷺ وآخرون: هو الآخر لم يتوان عن وعظ ومحاورة الخوارج لنأيهم عمّا هم فيه، قال ابن كثير رحمه الله: "فتقدّم إليهم قيس بن سعد بن عبادة، فوعظهم فيما هم مرتكبوه من الأمر العظيم والخطب الجسيم فلم ينفع ذلك فيهم، وكذلك فعل أبو أيوب الأنصاري أنّبهم ووبّخهم فلم ينفع فيهم"[19].

وقد أثمر الحوار مع الخوارج مع أمير المؤمنين وبقية الصحابة إلى توبة ورجوع أربعة آلاف وعودتهم إلى جادة الصّواب " فبعث علي إلى بقيتهم: قد كان من أمرنا وأمر النّاس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمّة محمد ﷺ، بيننا وبينكم ألّا تسفكوا دما حراما، أو تقطعوا سبيلا أو تظلموا ذمّة، فإنّكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء" قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال 58]، فقالت له عائشة يا بن شداد فقتلهم؟ فقال: والله ما بعث إليهم حتى قطعوا السبيل، وسفكوا الدّماء، واستحلّوا أهل الذمة"[20].

ومنابذتهم بالسيف من أمير المؤمنين قد سبقها حوارات عدّة وهدنة سعى من خلالها علي ﷺ إلى أن يتثبّت النّاس من موقفهم، وطمعا في أن يصلح الله حالهم، فقد سئل رضي الله عنه عن الهدنة "الحوار" قالوا فخبّرنا عن الأجل لما جعلته بينكم؟ قال: ليعلم الجاهل ويتثبّت العالم، ولعلّ الله يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة"[21].

رغم كلّ هذه المحاولات غير أنّ الخوارج بادروا وافتتحوا بنقض الميثاق بسفكهم دم عبد الله بن خباب وزوجته الحامل"[22]، حيث شكّلت هذه الحادثة منعرجا حاسما في الانتقال من التعامل السلمي مع هذه الفرقة الباغية إلى مقاتلتها بالسّيف.

المحور الثالث: معاملة علي بن أبي طالب للخوارج بعد حمل السلاح

لما استفحل أمر الخوارج ونقضوا الميثاق وتحولوا من جماعة ذات أصول وعقائد تجهر بها أمام النّاس، إلى جماعة تحمل السلاح في وجه ولي أمر المسلمين والمجتمع الإسلامي عموما، سلك علي ﷺ معهم مسلكا من شأنه أن يحد من خطر هذه الفئة حيث جنح إلى مقاتلتهم ولم يكن متحمسا ولا حريصا على سفك دمائهم، إنّما أراد فقط أن يأخذ حق المقتولين والمغدورين من جماعة المسلمين الذين نالت منهم أيادي الخوارج، وتلخصت منهجية تعامله معهم في هذه المرحلة فيما يلي:

أولا: الاقتصاص من القتلة

فقه علي بن أبي طالب ﷺ فقه قائم على المحافظة على وحدة المسلمين لاقتضاء نصوص الشريعة ذلك، والمحافظة على الأعراف القبلية من جهة أخرى، جعلته يبعث برسالة يهدف من خلالها إلى أخذ حق القتلى فقط فقال:" ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم لنقتلهم بهم، ثمّ إنّا تاركوكم، وذاهبون عنكم إلى الشام ثمّ لعلّ الله أن يقبل بقلوبكم ويردكم إلى خير ممّا أنتم عليه، فبعثوا إليه يقولون: كلّنا قتة إخوانكم، ونحن مستحلون دماءهم ودماءكم"[23].

وهذا ما يبرز لنا الفقه المتكامل والنظرة الشاملة في إدارة الفتنة القائمة بيه وبين الخوارج من جهة، وبين جيش معاوية بالشام من جهة أخرى.

كما أراد بموقفه هذا أن يحافظ على أمان النّاس والمجتمع من شرّهم، وأن يحافظ على تماسك وتكتل جيشه الذي سيمضي به إلى الشام.

ثانيا: تجديد الدعوة للجنوح إلى السلم

ومع إصرارهم على موقفهم في تكفير المسلمين واستحلال دمائهم، لم يستنكف علي بن أبي طالب ﷺ عند اصطفاف الجيش أن يمنحهم أمانا آخر كمحاولة أخرى للإعراض عمّا هم عليه من قتل المسلمين، فرفع راية أمان مع أبي أيوب الأنصاري الذي نادى فيهم قائلا: "من جاء هذه الراية منكم ممّن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، إنّه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم"[24].

ثالثا: وجوب قتالهم

كل هذه الصولات والجولات بين علي بن أبي طالب ﷺ والخوارج الرامية إلى تهدئة الأوضاع، وعدم إغراق الأمّة في الفتن والدماء، ومع إصرار الخوارج على القتال، أمر علي ﷺ جيشه أن لا يبادر بقتال الخوارج رغم ما بدر منهم، وهذا تعظيما لشأن الدماء، فقل لأصحابه: "كفّوا عنهم حتى يبدؤوكم، وأقبلت الخوارج وهم يقولون: لا حكم إلا لله..."[25].

فلمّا التحم الجيشان واشبكا أسفرت المعركة بعدها على قتلى وجرحى كثر في جيش الخوارج، ولم يستشهد من جيش علي ﷺ إلا قلّة قليلة.

قال أبو محنف فحدثني عبد الملك بن مسلم بن سلام بن ثمامة الحنفي، عن حكيم بن سعد، قال: ما هو إلا أن لقينا أهل البصرة، فما لبثناهم، فكأنّما قيل لهم موتوا، فماتوا قبل أن تشتدّ شوكتهم وتعظم نكايتهم"[26].

وذكر ابن كثير أنه: "نهض إليهم الرجال بالرّماح والسيوف، فأناموا الخوارج، فصاروا تحت سنابك الخيول، وقتل أمرائهم...ولم يقتل من أصحاب علي إلا سبعة نفر"[27].

رابعا: التزام المبادئ الشرعية للقتال

التزم علي ﷺ خلال كل هذه الأحداث مع الخوارج جملة من المبادئ والأسس التّي دلّت عليها نصوص الوحي الشريف وذلك من خلال ما يلي:

1- **التفريق بين المقاتل وغير المقاتل:** لم يقاتل علي ﷺ الخوارج لانحراف عقائدهم ولا لتحيّزهم نحو حاروراء، إنّما طالب وقاتل من قتل جماعة المسلمين فقط.

2- **الإحسان في معاملة الأسرى:** أمام إصرار الخوارج على شقّ عصى المسلمين ومقاتلة المسلمين، إلاّ أنّ علي ﷺ، ظلّ يسلك مسالك منهجية بالحسنى وهذا التزاما منه بالأخلاق الإسلامية في التعامل مع الآخر، وهذا ليردّهم عمّا هم فيه، بل حتى لما نشب القتال بينهم ووقع بعض من الخوارج كأسرى بين يدي جيش علي ﷺ، لم يتعرّض لهم ولم يعذبهم ولم ينكّل بهم ولم يقتلهم، بل سلّمهم إلى قبائلهم ليداووهم، ذكر ابن جرير الطبري أنّ عليا ﷺ " طلب من به رمق منهم فوجدناهم أربعمائة رجل، فأمر بهم علي فدفعوا إلى عشائرهم، وقال: احملوهم معكم فداووهم، فإذا برئوا فوافوا بهم الكوفة، وخذوا ما في عسكرهم من شيء، قال: وأما السلاح والدّواب وما شهدوا به عليه الحرب فقسّمه بين المسلمين، وأمّا المتاع والعبيد والإماء فإنّه حين قدم ردّه على أهله"[28].

3- **دفن الجثث وعدم التنكيل بها:** من أهم المبادئ الأخلاقية التي ألحّت عليها نصوص الشريعة في الحرب هي عدم التنكيل بالجثث وإكرامها بالدّفن، وهذا ما تمثّله علي ﷺ وجيشه، فقاموا بعد المعركة بمداواة الجرحى ودفن الموتى، قطعا للشحناء والبغضاء التي عادة ما تنتج عن هذه التّصرفات في الحروب والمنازعات المسلحة.

ذكر ابن جرير الطبري أنّ عدي بن حاتم "طلب ابنه طرفة فوجده فدفنه، ثم قال: الحمد لله الذي ابتلاني بيومك على حاجتي إليك، ودفن رجال من النّاس قتلاهم، فقال أمير المؤمنين حين بلغه ذلك: ارتحلوا إذن أتقتلونهم ثم تدفنونهم، فارتحل النّاس"[29].

خاتمة:

وفي ختام هذه الورقة البحثية الموسومة ب: التعامل مع المعارضة السياسية في الفقه السياسي الإسلامي - علي بن أبي طالب مع الخوارج نموذجا- توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج تتمثل فيما يلي:

- دور الحوار في معالجة قضايا التّطرف الفكري إقامة للحجة ودفعا للشبهة.
- تصدر أولي الأمر والعلماء لمحاورة أصحاب الفكر المتطرف.
- بروز أثر الحظوة العلمية والملكة الاجتهادية في شخص علي التي مكّنته من إدارة الأزمة بكل اقتدار.
- ثراء التجربة السياسية الإسلامية في معالجة قضايا الغلو والانحراف السياسي والديني.
- أسبقية النماذج السياسية الإسلامية في حلّ المنازعات الداخلية والخارجية على القوانين والمواثيق الدولية المعاصرة.
- أسبقية التجربة الإسلامية في إرساء قواعد ومبادئ النزاعات المسلّحة داخليا وخارجيا.
- غنى وثراء التجربة الإسلامية في المجال السياسي لمن أراد تفعيلها وتجسيدها.

مقترحات:

- تمكين علماء الأمة من محاورة المخالف في الملّة أو النحلة.
- التدرج في الحوار مع المخالف وفق ما تمليه القيّم والمبادئ الإسلامية.

- التفريق في التعامل مع رؤوس الفرق وأتباعهم.
- الجمع بين وظيفة العلماء والأمراء في معالجة التطرف الفكري والغلو الديني.
- التمكين للمنهج الإسلامي الحقيقي في جميع مؤسسات التنشئة الاجتماعية.
- تفعيل قيمة العدل في التعامل مع المخالف.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

1. جمال الدين محمد ابن منظور (711)، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج1، ط3، 1999م، والمعجم الوسيط، إصدار مجمع اللغة العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1.
2. عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي (429)، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم عقائد الفرق الإسلامية وآراء كبار أعلامها، تح: محمد بن عثمان الخشن، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، مصر، القاهرة، د ط، د ت.
3. عز الدين علي بن الأثير (630)، الكامل في التاريخ، تح: صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، د ط، د ت، ج3.
4. علي بن أحمد ابن حزم (711)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تح: الدكتور محمد إبراهيم نصر والدكتور عبد الرحمان عميرة، دار الجيل بيروت، 1416هـ-1996م، ج1.
5. علي جمعة الرواحنة، مرتكزات المعارضة السياسية وأحكامها في الفقه الإسلامي، مجلة دراسات، ع03، علوم الشريعة والقانون، عمادة البحث العلمي، جامعة الأردن،2015.
6. عماد الدين ابن كثير (774)، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عد المحسن التركي، ج10، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، ط1، 1418-1998م.
7. محمد بن إسماعيل البخاري (256)، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1423هـ-2002م.
8. محمد بن جرير الطبري (310)، تاريخ الرسل والملوك، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ج3.
9. محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (548)، الملل والنحل، تح: كسرى صالح العلي، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 1436هـ-2015م.
10. مسلم بن الحجاج القشيري (261)، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ج2، ط1، 1412هـ-1991م.
11. ناصر بن عبد الكريم العقل، الخوارج أول فرقة في تاريخ الإسلام، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، ط1، 1419هـ - 1998م.
12. يوسف بن عبد البر (463)، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، تح: محمد منير الدمشقي، دار المنيرية، مصر، 1415هـ-1994م.

الهوامش:

[1]- رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. وقال عنه ابن تيمية: (هو حديث صحيح مشهور)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

[2]- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ج2، ط1، 1412هـ-1991م، ص: 745.

[3]- الملل والنحل، العلامة أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، ضبطه وعلق عليه كسرى صالح العلي، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 1436هـ-2015م، ص 46.

[4]- علي جمعة الرواحنة، مرتكزات المعارضة السياسية وأحكامها في الفقه الإسلامي، مجلة دراسات، العدد 03، علوم الشريعة والقانون، عمادة البحث العلمي، جامعة الأردن، 2015م، ص 853.

[5]- رواه البخاري، باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه، رقم 6933، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1423هـ-2002م، ص1714.

[6]- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج1، ط3، 1999م، ص: 327-328، والمعجم الوسيط، إصدار مجمع اللغة العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1، ص: 223.

[7]- الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تح: صالح العلى، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان، ط1، 1436هـ 2010م، ص: 133.
[8]- أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر والدكتور عبد الرحمان عميرة، دار الجيل، بيروت، 1416-1996، ج1، ص114.
[9]- العقل ناصر بن عبد الكريم، الخوارج أول فرقة في تاريخ الإسلام، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، ط1، 1419هـ - 1998م، ص: 22.
[10]- البغدادي عبد القاهر بن طاهر بن محمد، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم عقائد الفرق الإسلامية وآراء كبار أعلامها، تح: محمد بن عثمان الخشن، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، مصر، القاهرة، د ط، د ت، ص: 72.
[11]- البغدادي عبد القاهر، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص: 72.
[12]- ابن كثير عماد الدين إسماعيل، البداية والنهاية، اعتنى به حسن عبد المنّان، بيت الأفكار الدولية، لبنان، 2004، ص: 1151.
[13]- الطبري محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، مصدر سابق، ص: 73.
[14]- المصدر السابق، ص: 91.
[15]- ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن محمد، الكامل في التاريخ، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، دط، د ت، ج3، ص: 444.
[16]- رواه مسلم، مرجع سابق.
[17]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، مصدر سابق، ص 1157.
[18]- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، يوسف بن عبد البر النمري الأندلسي أبو عمر، تحقيق محمد منير الدمشقي، دار المنيرية مصر، 1415هـ-1994م، ص 103.
[19]- ابن كثير، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن محمد بن عبد المحسن التركي، ج10، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، ط1، 1418هـ-1998م، ص: 586.
[20]- ابن كثير، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن محمد بن عبد المحسن التركي، ج10، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، ط1، 1418-1998م، ص: 567.
[21]- ابن الأثير عز الدين علي بن محمد ابن محمد، الكامل في التاريخ، بيت الأفكار الدولية، ج3، ص: 442.
[22]- المصدر السابق، قصة ذكر الخوارج، ج1، ص: 446.
[23] - ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج10، ص: 586.
[24]- الطبري محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ج3، ص: 872.
[25]- ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ص: 586.
[26]- أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المجلد الثالث، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ-1987م، ص122.
[27]- عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر ابن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج10، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الجيزة، مصر، ط1، 1418هـ 1998م، ص588.
[28]- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، المصدر السابق، ص 123.
[29]- الطبري ابن جرير، تاريخ الرسل والملوك، مصدر سابق، ص: 873.